

مجال الفن أو حتى في غير الفن - ملية متمايزة العناصر ، يمكن التحكم في عنصر منها دون الآخر ، لقد خلعوا على هذه العملية المعقدة بطبيعتها صورة من الواقع الخارجى ، وعاملوها على هذا الأساس ، وما أبعد الفرق بينهما !

ولم تسلم دراسة البلاغيين لهذا العلم من آفة الإفراط في تقسيم الظواهر وتشقيقها إلى الحد الذى تنوء باستيعابه عقول أذكى الأذكاء من البشر ، بل إن هذه الآفة قد استشرت في هذا الفرع من الدراسات البلاغية أكثر من الفرعين الآخرين فقد تبارى كثير من البلاغيين في القرون الأخيرة في تسجيل ظواهر بديعية زيادة على ما قدمه السابقون عليهم ، وعرف البحث البلاغى في تلك المرحلة الأخيرة نفرا من هؤلاء الذين سمو بأصحاب « البديعيات » وهى منظومات شعرية تحوى تعريفا بألوان البديع المختلفة على غرار ألفية ابن مالك في النحو ، ومن أشهر هؤلاء ابن حجة الحموى في القرن التاسع الهجرى ، وقد شرح بديعيته شرحا مطولا في كتاب يعرف باسم « خزانة الأدب » .

ولا شك أن نضوب ينابيع الابداع وضحالة العطاء الفنى عند شعراء تلك العصور كان له أثره في توجيه البلاغيين إلى الماضى في هذا الاتجاه ، ولا نغالى إذا قلنا إن بعضا من النماذج الشعرية كتبت لتكون شاهدا على لون بديعى أو آخر ، وهكذا مضى البحث البلاغى بتكلف لإحصاء الظواهر ، والاستزادة منها فأى سبيل ، دون أدنى اهتمام بما ينبغى أن يكون غاية أساسية للدراستها ، وهى تحليل مدى تأثيرها في تشكيل الصورة الفنية في الشعر والنثر ، وعوامل شيوع ظاهرة ما عند شاعر معين ، أو لدى شعراء عصر بناته ، وعلاقة ذلك بالمناخ الفكرى والنفسى للشاعر أو للعصر كله ، وما إلى ذلك من قضايا لها أثرها وخطرها .

لقد انصرف البلاغيون إلى تعداد الظواهر ، كما قدمنا ، وشغلوا أنفسهم بالإكثار منها بالتوليد والتفريع ، مع ذكر بعض الفروق الطفيفة التى لا تأثير لها سوى أن يكون لهذه الظاهرة اسم ، ولتلك اسم آخر . وليقارن القارئ إذا شاء بين مدلولات الظواهر الآتية :

مراعاة النظر ، تشابه الأطراف ، الارصاد أو التسهم . وليراجع كذلك أسماء أنواع الجناس . ومن الملاحظ أن تفريعهم لبعض الظواهر مرجعه « القسمة